أثر القـــرآن الكريم فى اتجاهات المدارس النحوية

للدكتور/محمد عبد الله سعادة

١ — فى مدرسة البصرة :

أحب أن أبين أن البصرة أغلب سكانها من القبائل العربية التى كانت تقيم فى شرقى الجزيرة العربية وبخاصة منطقة الخليج الفارسى . وكانت تقع على على ممر عدة طرق تجارية مهمة ، ولذا أصبحت مركزا لحياة اقتصـــادية ، نشيطة .

ولم تكن البصرة فى عزلة عن الاعاجم والموالى الذين بدءوا الرحيل الى الحواضر الاسلامية بسبب الفتوح .

ومن هنا ظهر اللحن ، واستبد بالخاصة والعامة ، مما جعـــل الولاة والخلفاء يفكرون فى وضع الاسس التى تصون بناء اللغة .

وكان من أهم هذه الاسس الاشتغال بالدراســـة النحـــوية ووضـــع قواعدها ، ولذلك فان علماء البصرة تعهدوا الدراسة النحوية بالعناية لأنها فى بلدهم نشـــأت وتكونت وأخذت تنمو شيئا فشيئا حتى تسلم هذه الراية الخليل بن أحمد الذى غذى بعلمه تلميذه النابه سيبويه ، فتطورت الدراسة النحوية على يديه .

اثر سيبويه فى مدرسة البصرة :

وبفضل سيبويه تكونت مدرسة البصرة ، وتميزت معالمها وأهدافهـــا واقرر هنا بحق ان الجهود الاولى التى بذلها النحاة السابقون قبل أن يظهـــر سيبويه على المسرح — كانت بذورا طيبة نمت ولم تنضج ثماراه الا على يد سيبويه .

وقد كان من سوء حظ النحو العربى ان جاء سيبويه فى وقت مبكر جدا لا يتجاوز النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، اذ نتج عن تفوق وشدة اعجـــاب النحـــاة به أن أصيب التفكير النحوى بشلل ودار الجميع فى فلك سيبويه وهذا سر اطلاقهم عليه اسم « قرآن النحو » . وكان المبرد يقول لمن أراد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه « هل ركبت البحر » ؟ استعظاما له .

ونود أن نبين ان فضل الخليل على كتاب سيبويه لا ينكر ، ولم تكن هذه

الحركة النحوية وقفا على البصريين وحدهم ، بل شرب من معينهـا نحـاة الكوفة ، ودليـل ذلك أن يونس بن حبيب وهو بصرى سمع منه الكسـائى والفراء ، وبعد ذلك سار نحاة البصرة والكوفة جنبـا الى جنب وتنافسا فى البحث والانتاج فمن نحاة البصرة نجد الاخفش ، وقطرب والمازنى والمبرد ومن نحاة الكوفة نجد الكسائى والفراء وثعلب . وهؤلاء جميعا عاشوا وماتوا قبل نهاية القرن الثالث الهجرى ، وأهم ما يميز هذه الفترة ارتقاء البحث النحوى بدرجة لم تسمح بجديد بعدها . كما يميزها ظهور الكتب الكاملة التى تعالج النحو بابا بابا . وكتاب المقتضب للمبرد مثل على ذلك . وهو رغم اسمه كتاب ضخم . وهذه الفترة يميزها أيضا اتجـاه البحث الى التعمق والاستقصاء للمأثور عن العرب واعمال الفكر . وقد أذكى من روح النشاط التنافس بين البصرة والكوفة ، وميز هذه الفترة كذلك انفصال الصرف عن النحو على يد أبى عثمان المازنى الذى ألف كتاب « التصريف » وقد طبع هذا الكتاب بشرح العالم ابن جنى عليه . وسمى « المنصف » .

وبعد القرن الثالث الهجرى نافست أقطار أخرى البصرة والكوفة فى الدراسة النحوية وكان أشهرها بغداد ومصر والمغرب والاندلس وأهم ما يميز هذه المرحلة أنه خفت فيها حدة التنافس والتعصب وظهر جيل من العلمـاء لم يتحيز لعالم دون آخر . وأول من فعل ذلك البغداديون . واتجه رجال هذه الفترة الى عرض المذهبين السابقين واختيار ما يبدو مناسبا منهما ، بالاضافة الى زيادة ما تولد لهم من اجتهادهم . ومن أشهر رجال هذه المرحلة ـــ حتى نهاية القرن الرابع ـــالزجاج وابن السراج والزجاجى والاخفش الصغـير والسيرافى وأبو على الفارسى وابن جنى والرمانى .

مفهـوم المدرسـة النحـوية :

هذا المصطلح يعنى فى نظرنا وجود جماعة من النحاة ، يصل بينهم رباط عن وحدة الفكر والمنهج فى دراسة النحو ، ولابد أن يكون هناك رائد يرسـم الخطة ويحدد المنهج .

ومن ناحية أخرى ليس من المعقول أن نجعل المعيار الجغرافى أساسا لتقسيم العلوم الى مدارس فكرية مختلفة . ان وجود جماعة من الدارسين فى مكان واحد لا يكفى مطلقا لتشكيل مدرسة . اللهم الا اذا وجد الخيط الذى

يصل بينهم ، والخطة والنظرية التى يشتركون فيها . وعلى هذا يكون المرشح لكونهم مدرسة هو اشتراكهم فى خط فكرى معين ، وليس وجودهم فى مكان واحد .

ولنأخذ مثالا على ذلك من أقدم مدرستين فى اللغة والنحو وهما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ، فماذا نجد ؟ نجد البصريين أو الكوفيين يختلفون فى المسألة الواحدة ، ونجد فى كثير من الاحيان بصريين ينضمون الى مدرسة الكوفة ، وعكس ذلك .

والامثلة على ذلك كثيرة منها :

١ — فى حالة يصرح الاخفش وهو بصرى بأن رأى الكوفيين صحيح .

٢ — فى حالة أخرى نجد الخليل يخالف رأى سيبويه والاخفش .

٣ — فى حالة أخرى نجد الكسائى وهو كوفى يفضل رأيا بصريا وعلى الرغم من أن المبرد وسيبويه ينسبان لمدرسة واحدة . فقد وجدنا أن أقسى هجوم تعرض له سيبويه كان من المبرد . فقد خصص المبرد كتابا للهجوم على سيبويه والاعتراض عليه . ورغم أن الكتاب الذى الفه المبرد للهجوم على سيبويه لم يصلنا نصه ، فقد وصلت اقتباسات كثيرة منه فى كتب متأخرة تكفى لتكوين فكرة عنه ، فقد الف ابن ولاد المصرى المتوفى سنة ٣٣٢هـ كتاب « الانتصار لسيبويه من المبرد » ويدافع فيه عن سيبويه أمام المبرد . ومن هذا الكتاب علمنا أن كتاب المبرد يحوى ١٣٤ مسألة اعتراضا على سيبويه . ومن ذلك نجد أن اختلاف المنهج والخط الفكرى واضح جدا بين سيبويه والمبرد وهما رأس المدرسة البصرية .

وكذلك الكسائى والفراء ينتميان الى مدرسة الكوفة وخلافهما كثير فى مسائل النحو . ومن ذلك :

١ — يذهب الكسائى الى جواز العطف على اسم ان بالرفع قبل تمام الخبر ، فيصح عنده أن تقول : ان زايد وعمرو قائمان ولكن الفراء يفصل ، فيجيز ذلك فى حالة خفاء الاعراب فى اسم ان ، ويمنعه فيما عدا ذلك ، فمثال ما خفى اعرابه « انك وزيد قائمان » وحمل على قوله تعالى : ان الذين آمنو والذين هادوا والصائبون ... »(١) .

٢ — يذهب الكسائى مثل البصريين الى أن نعم وبئس فعلان ماضيان لا يتصرفان ، ويذهب الفراء مثل رأى بقية الكوفيين الى أنهما اسمان .

وهذه الامثلة وغيرها تكشف عن فساد المعيار الجغرافى لتكوين مدرسة نحـــوية .

ومن أجل ذلك فنحن نفضل المعيار المبنى على أساس النظريات المنفصلة والاتجاهات المستقلة . وعلى هذا يمكننـــا أن نتكلم عن نظـــرية سيبويه فى الالتزام بما سمع عن العرب وعدم استخدام القياس النظرى ، لأن العـــرب يمتنعون عن التكلم بالشىء وان كان القياس يوجبه ، ويتكلمون بالشىء وان كان القياس يمنعه . وهذا الاتجاه ربما يكون أكثر دقة فى تتبع النظرية أو الاتجاه .

أهم الفروق بين مدرستى البصرة والكوفة :

كان أهم ما يرتكز عليه المذهب البصرى هو القياس .

« ما القيـــاس » ؟

هو عبارة عن الحاق الفرع بالاصل ، أورد الشىء الى نظيره والقياس بدأ فى زمن مبكر على يد نحاة البصرة القدامى . قبل أن يظهـــر على مسرح الدراسة النحوية بعد ذلك .

وكان عبد الله أبى اسحاق أول من استعمل القياس فى النحو ثم نمت بذور القياس على يد سيبويه ، فقد أكثر من القياس وتوسع فيه . والناظر الى كتاب سيبويه يجد فيه أمثلة كثيرة للاقيسة المختلفة . وانه اصبح أساسا من أسس الدراسة النحوية التى تبنى عليها القواعد .

من اين استمد البصريون اللغة التى قاسوا عليها ؟

المصادر اللغوية للقياس عند البصريين :

١ — القبائل البدوية التى ابتعدت عن المؤثرات الاجنبية .

٢ — أشعار العرب الجاهلين .

٣ — القـــرآن الكريم .

فقد تشدد البصريون فى فصاحة العربى الذى يؤخذ منه الشعر واللغة .

ولم يكتف البصريون فى استخلاص القاعدة بالمثال الواحد ، وانما اشترطوا الكثرة والتداول على ألسنة العرب الفصحاء ، أما الكوفيون تساهلوا فى الاخذ بالاشعار والاقوال الشاذة ، ولا يشترطون الكثرة فى بناء قواعدهم .

ولذلك نجد التأويل والتقدير كثير عند البصريين بطريقة لافتة للنظر ، وذلك تبعا لرفضهم كثيرا من الامثلة العربية الصحيحة واخضاع الامثلة العربية الصحيحة للاقيسة النظرية .

نقـــد ومناقشـــة للمنهـــج البصرى

١ ـــ كان من افراط البصريين فى استخراج الاقيسة العقلية وتشددهم فى قبول الشاهد النحوى ، أن وجدوا أنفسهم أمام شواهد فصيحة تخـــالف قياسهم المنطقى ، وهنا وجدوا أنفسهم اما مضطرين الى تأويلها واما الى الحكم بالشذوذ أو الخطأ . وقد أدت تأويلات النحاة الى افساد النحو العـــربى . وان أردت الدليل على ذلك فانظر الى ما قاله النحويون فى نواصب المضارع . ذهب اكثر الكوفيين الى أن النواصب عشرة وهى تنصب المضارع بنفسها . وهذا مذهب لا تعقيد فيه . أما البصريون فقد قسموا النواصب الى قسمين : ينصب بنفسه وهو أن ولن واذن وكى ، وقسم ينصب بأن مضمره بعده وهو النواصب الستة الباقية . ثم تحدثوا بعـــد هذا عن « أن » المضمرة وجوبا والمضمرة جوازا . واضطرهم تقدير « أن » الى أن يبحثوا للادوات الستة عن أعمال أخرى غير النصب . لأن ما بعدها لابد أن يؤول بمصدر لوجود أن المضمرة ، وهذا المصدر لابد له من اعراب ، ووقعوا بذلك فى تكلفات واخترعوا لنا ما سموه بالمصدر « المتصيد » . وقد فعل البصريون ذلك تبعا لقاعدتهم التى تقول « ان الحروف لا تعمـــل الا اذا كانت مختصـــة » . فمادامت هذه الحروف تدخل على الاسماء والافعال فلا يصح أن تعمل .

وأحيانا كان البصريون يريحون أنفسهم فيرمون الشاهد بالنـــدرة أو الشذوذ أو الخطأ .

وعلى الرغم مما فى مذهب الكوفيين من بساطة ويسر ، وبعد عن التكلف والتـــأويل والتقـــدير فى الغالب فأكثر ما يعيبـــه انه ربما يوقع فى الفوضى والاضطراب فى ظواهر اللغة . لأن شرط كل لغة أن تكون لها ظواهر مطردة

منسجمة . فلو أننا سمحنا باستخدام التعبير لمجرد وجود شاهد واحد نقيس عليه . ربما كان هذا الشاهد من بقايا لهجة قديمة أو ضرورة أو نحو ذلك . لو قسنا على هذا الشـــاهد لما أصبح للغة قيود وقواعد ، وبعض النـــاس يقولون : لا تتحرج من الكلام فمهما أخطأت فستجد لك وجها فى العربية تصح به عبارتك » لو صح هذا لحدث الاضطراب فى اللغة العربية . تخيل معى شخصا يرفع المفعول ، وينصب الفـــاعل أو غير ذلك ... فأى شىء يبقى لقواعد اللغة .

وعلى هذا فمن الخير أن نتبع طريق البصريين فى وضع القواعد دفعـــا للفوضى والاضطراب . ولكن دون لجوء الى تأويل وتقدير .

أما فى الجموع والمصادر والمشتقات وأمثالها مما يتعلق بصوغ الالفاظ فلا مانع من القياس بمعناه العام الذى يبيح لنا محاكاة الكلام العربى الفصيح مهما كان قائله وهذا هو طريق الكوفيين . ومن أمثلة ذلك :

١ ــ حين تذكر كتب اللغة بعض مشتقات المادة اللغوية وتترك بعضها فالتوسع فى القياس يكمل هذا النقص ، اذا وجدنا أن العرب يشتقون وزنا خاصا للدلالة على معنى خاص أمكننا أن نقيس عليه ما لم يذكر . فاذا صاغ العرب فعال للدلالة على محترف الحرفة نحو نجار وحداد أمكننـــا أن نقيس عليها أصحاب المهن الاخرى نحو فنان وبواب .

٢ ــ البصريون خالفوا أصلهم فى القياس على الكثير وترك القليل وذلك فى مسائل النحو . فتراهم يمتنعون عن القياس على الكثير ، وتارة يقيسون على المثال الواحد . ومن النوع الاول اعترافهم بأن وقوع المصدر حالا وصفة كثير ومع ذلك قصروه على السماع . ومن ذلك اعترافهم بأن « فعيل » بمعنى مفعول كثير فى لسان العرب ومع ذلك لم يقيسوا عليه باجماع .

ومن النوع الثانى أنهم نسبوا الى فعوله على فعلى مع أن ذلك لم يرد عن العرب الا فى مثال واحد وهو شنوءه(١) فقالوا شنئى .

أما المذهب الكوفى فقد أجاز القياس على المثـــال الواحد المسموع ولم

---

(١) شنوءة : حى فى بلاد اليمن .

يعتبر القلة والكثرة وذلك لأن القبائل العربية تتساوى فى صحة كلامها ولغتها ، وليس أمام العقل مسوغ لتفصيل لهجة على أخرى . ومن يدرينا أن الظاهرة اللغوية التى روى لها الكوفيون شاهدا واحدا ليس لها شواهد أخرى ؟ أليس من الممكن أن يكون وراء هذا الشـــاهد الواحد عشرات الشـــواهد التى لم يسجلها العلماء ، أو فقدت ولم تصلنا .

ويروى عن أبى عمر بن العلاء قوله : « ما انتهى اليكم مما قالته العرب الا قلة ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير .

هذا وليس من السهولة أن يدعى البصريون أنهم حينما يحصرون اللغة فى قبائل معينة يكونون بذلك قد وضعوا يدهم على ما فى اللغـــة من تراكيب وأساليب ، وعلى كل ما فيها من غريب لأن اللغة أعز من أن يحاط بها أو تحصر فى مجموعة من النصوص والاساليب .

ومن الاخطاء التى وقع فيها البصريون أنهم أبعدوا القراءات القرآنية عن مجال الدراسة النحوية ، وبذلك حرموا النحو من مصـــدر كبير نعم انهم أخذوا ببعض القراءات ، ولكنها ليست وحدها فى الميدان .

القياس البصرى والقرآن الكريم :

كثير من المسائل النحوية كان من الممكن أن تقوم على القـــرآن وحده لوضوح دليلها ، ولكن البصريين اتبعوا قياسهم فتركوا الاستدلال بهذه المسائل اعتمادا على هذه المقاييس .

ومن ذلك :

ـ تقـــديم خبر ليس عليهـــا :

يمنع البصريون ذلك ، وقاسوا على عسى . وخبر عسى لا يتقدم عليها اتفاقا ، والجامع بينهما الجمود(١) .

وكان من الممكن أن يترك هذا القياس لوجود القرآن الكريم الذى ينطق

---

(١) شرح التصريح ١٨٨/١ ط الحلبى .

بالجـــواز فى قوله تعالى : ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم »(٢) ويلاحظ أن قدماء البصريين يجيزون ذلك ولكن أكثرهم يمنعون .

والحق أن القرآن الكريم لا يخضع لأقيسة البصرة أو الكوفة لأنه مصدر القياس ، والاصل الذى يجب أن يقاس عليه .

ومع ذلك فالبصريون لم يلتزموا القياس فى كل مسائلهم ، لأنهم حطموا هذا القياس أمام جملة سمعت من العرب . وهذا أمر عجيب لأنهم لا يأخذون بالآيات القرآنية ويعملون فيها التأويل والتخريج على حين يسلمون بالكلمة أو الجملة التى سمعت من العرب . صحيح أن القياس عن العرب له مكانته وهو مصدر مهم فى بناء قواعد اللغة ولكن اذا استعمل استعمالا صحيحا ، ويجب ازاء هذا القياس أن نحترم السماع ، فاللغة رواية ونقل لا منطق وعقل .

٢ ـــ ذهب الكوفيون الى جواز العطف على موضع اسم « ان » قبـــل مجىء الخبر. واحتجوا بقوله تعالى: ان الذين آمنوا والذين هادوا والصائبون والنصارى »(١) وجه الدليل أنه عطف « الصائبون » على موضـــع اسم ان قبـــل تمام الخبر ، والخبر قوله : من آمن بالله واليـــوم الآخر والبصريون لا يجيزون ذلك .

اثر القرآن الكريم فى التخريجات النحوية عند البصريين :

البصريون معترفون بأن القرآن الكريم أصل من أصول الاستشهاد ولكن عز عليهم أن يحطموا قياسهم أمام القـــرآن ، وفى الوقت نفسه عز عليهم ألا يغترفوا من معين القرآن الكريم فى بناء القواعد . ولذلك ذهبوا الى التخريج والتأويل حتى يوافق القياس الذى وضعوه .

وبهذا التأويل تزاحمت مسائل النحو . ففى كل مســـألة قولان لا ، بل

---

(٢) سورة هود آية ٨ . وجه الدليل أنه قدم معمول خبر ليس عليها فان قوله « يوم يأتيهم » يتعلـــق بمصروف . وقد قدمه على ليس فجواز تقديم المعمول يؤذن بجواز تقديم الخبر .

(١) سورة المائدة آية ٦٩

اقوال . واللغة يجب أن تبتعد عن ميدان التأويل والتخريج حتى لا تضطرب المعانى ، وتختلفوا الافكار .

وكنا نود تقديسا للقرآن الكريم الا يكون هذا القرآن موضعا للتأويلات ، ما لم تكن هناك ضرورة تدعو الى ذلك .

ومن أمثلة ذلك

١ — فى وقوع الفعل الماضى حالا :

وذهب الكوفيون الى جواز وقوع الماضى حالا . واحتجوا بقوله تعالى : « أو جاءوكم حصرت صدورهم »(١) فحصرت فعل ماض وهو فى موضع الحال ، وتقديره حصرة صدورهم .

وأما البصريون فذهبوا الى منبع ذلك والماضى لا يقع وخرجوا ذلك على ما يأتى :

١ — ن تكون صفة لقوم المجرور فى أول الآية ، وهو قوله تعالى « الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق » .

٢ — أن تكون صفة لقوم ، والتقدير : أو جاءوكم قوما حصرت صدورهم

٣ — أن يكون خبرا بعد خبر ما كأنه قال : أ وجاءوكم ما ثم أخبر فقال : حصرت صدورهم .

٤ — أن يكون محمد لا على الدعاء ما لا على الحال ، كأنه قال: ضيق الله صدورهم .

٢ — وقوع الحـــال مصـــدرا :

ورد الحال مصدرا بكثرة . ومن ذلك قوله تعـــالى : ثم ادعهن يأتينك سعيا(١) ، والذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية(٢) ، وادعوه

---

(١) سورة النساء آية ٩٠ .
(١) البقرة ٢٦٠ .
(٢) البقرة ٢٧٤ .

خوفا وطمعا(٣) ، ثم الى دعوتهم جهارا(٤) .

فالبصريون ذهبوا الى أنها مصادر فى موضع الحال مؤولة بالمشتق اى ساعيا ومسرا وخائفين وطائعين .

وهذا هو السبب فى رأيى فى اضطراب منهج البصريين ، لأنهم حاولوا اخضاع اللغة والمقاييس ، فنشأ الاضطراب ، ولو حولوا نظرهم الى القرآن الكريم وهو الجامع لأفصح اللغات لو فعلوا ذلك لسهل عليهم النحو وكانت اللغة فى مأمن من الاضطراب .

نعم ان البصريين اعتمدوا على القرآن الكريم ولكن فى مسائل قليلة وكذا نود أن يصبح القليل لكثيرا .

ومن هذه المسائل التى اعتمدوا فيها على القرآن الكريم :

١ ــ العامل فى الخبر النصب بعد ما النافية :

ذهب البصريون الى أن « ما » النافية تعمل النصب فى الخبر . قال البصريون : كان القياس يقتضى الا تعمل الا أنه وجد بينها وبين (ليس) مشابهة فعملت عملها وهى لغة القرآن قال تعالى : ما هذا بشرا(١) وقال : ما هن أمهاتهم(٢) .

٢ ــ تقديم الحال على عاملها :

أجاز البصريون ذلك ، وهو الاصح وعليه الجمهور قياسا على المفعول به . وقد ورد به السماع . قال تعالى : خاشعة أبصارهم يخرجون »(١) .

---

(١) الاعراف ٥٦ .
(٢) نوح آية ٨ .
(٣) سورة يوسف ٣١ .
(٤) المجادلة آية ٢
(١) القلم آية ٤٣ .

ولاشك أن القرآن الكريم كانت آياته موضـــع بحث ونقـــاش فى اطار النحـــو البصرى بأصـــوله ومقاييسه . ولا شك ان هذا البحث عاد علـــى الدراسات النحوية بالازدهار والنمو .

دكتور

محمـــد عبـــد الله سعادة